أدباء... ومواقف!

بقلم
رجاء النقاش

كاتب روائي جديد

« اسماعيل فهد اسماعيل » كاتب روائي شاب من الكويت . سمعت اسمه يتردد هنا وهناك منذ سنوات ، دون ان اتمكن من معرفة شيء واضح عنه ، سواء من الجانب الادبي او الجانب الشخصي . وكان الذين يتحدثون عنه هم بعض النقاد احيانا ، وبعض الاصدقاء الذين يعرفونه معرفة شخصية في احيان اخرى ، وكانت حصيلة هذه الاحاديث كلها في ذهني هي صورة عامة وغير واضحة ولا دقيقة لهذا الاديب الجديد . كنت اتساءل بيني وبين نفسي : هل يمكن ان يظهر كاتب روائي كبير في مجتمع صغير محدود مثل الكويت ؟ . ان الرواية فن يحتاج الى مجتمع مليء بالاحداث والصراعات والتيارات الاجتماعية العميقة ، مما يصعب ان يتوفر في مجتمع صغير ، تجري فيه الاحداث والصراعات بصورة هادئة بعيدة عن العنف او الحدة . وكل الحركات الروائية الكبيرة ولدت في مجتمعات كبيرة كانت مليئة بالحركة والصراع والعنف ، فالرواية الروسية انجبت كتابها الكبار في القرن الماضي ، حيث كانت روسيا تضج بالوان من الاحداث والصراعات الكبيرة اثرت اعمق التأثير في عقل الانسان وضميره ووجدانه بل واثرت في حياته اليومية ايضا . كان هناك الصراع بين تيار في روسيا يريد ان يتجه الى الغرب ويأخذ باساليب الحضارة الاوروبية الحديثة وتيار اخر يريد المحافظة على شخصية روسيا وتراثها السلافي القديم ، وكان هناك صراع اخر حول « الرق » بين الالغاء والابقاء وكان هناك ايضا صراع حول النظام القيصري بين انصاره واعدائه . المجتمع الروسي كله كان مليئا بالحركة والضجيج والصراع العنيف الحاد . ومن هنا ولدت الحركة الروائية الروسية العظيمة في القرن الماضي ، ووجدت هذه الحركة مادة خصبة في الصراعات التي امتلأ بها المجتمع الروسي ، فكان هناك المتصوفون والعشاق والثوار والعبيد والاحرار ، وانعكست هذه النماذج كلها في ادب الروائيين الكبار مثل جوجول ودستويفسكي وتولستوي وغيرهم . ولو نظرنا الى نشأة الرواية الانجليزية او الفرنسية ، وحتى الرواية العربية فسوف نجد ظروفا متشابهة في جميع الاحوال حيث يحتاج فن الرواية الى توفر بيئة اجتماعية كبيرة غنية بالاحداث والحركة والصراع . وهذا ما كان يبدو لي انه غير متوفر في بيئة « الكويت » ، ذلك المجتمع الحديث الصغير الذي لا يتعرض لمشاكل عنيفة ، او صراعات حادة، او تيارات متناقضة تسمح بميلاد حركة روائية كبيرة .

هذا ما خطر لي عندما فكرت في قراءة روايات اسماعيل فهد اسماعيل ، خاصة بعد ان بلغت هذه الروايات ثلاثا . مما يدل على دأب هذا الكاتب واصراره على مواصلة طريقه الروائي ، ويدل من ناحية اخرى على توفر مادة روائية كافية امامه . على انني كنت ارد على نفسي عندما افكر في قضية الرواية والبيئة الاجتماعية ، بان هناك دائما استثناءات حول هذه القضية ، فليس من الضروري ان يولد الروائي في بيئة اجتماعية واسعة تسمع بالاحداث الكبيرة والصراعات الحادة .. نعم هذه هي القاعدة الضرورية لميلاد الروائي الكبير ، وهي القاعدة الضرورية بالذات لميلاد حركة روائية واسعة ... ولكن القاعدة دائما لها استثناء ، فهناك على سبيل المثال ذلك الكاتب الروائي الكبير « كازانتزاكس » ، فقد قدم لنا هذا الروائي العظيم عملا من ابرز اعماله واعمقها معتمدا على مادة انسانية واجتماعية مستمدة من بيئة جزيرة « كريت » وهي مجتمع صغير محدود لا يكاد احد يحس بوجوده فضلا عن وجود صراعات انسانية كبيرة في داخله .

على انني عندما انتهيت من قراءة الروايات الثلاث التي كتبها اسماعيل فهد لاحظت ان هذه الروايات جميعا تعتمد على البيئة الاجتماعية والانسانية للعراق ، وان مجتمع الكويت لا يمثل المادة الاساسية لهذه الروايات . وقد سألت بعض الاصدقاء المتصلين بالكاتب عن سر هذه الظاهرة ، فقيل لي ان الكاتب قد عاش فترة طويلة في العراق وعمل هناك قبل ان ينتقل منذ سنوات قليلة للكويت ، ومن هنا فان اسماعيل فهد اسماعيل يكون في نهاية الامر محسوبا على الرواية العربية العراقية وليس محسوبا على الرواية في الكويت . وهنا يكون ما احسست به ـ كقاعدة لميلاد الرواية والروائي ـ سليما حتى الان ، فمجتمع العراق مجتمع كبير مليء بالحركة والصراع ،وهو مجتمع يوفر مادة غنية للكاتب الروائي ، اما الكويت فما تزال ضمن القاعدة .. وما نزال نحن في انتظار من يكسر هذه القاعدة التي تقول بان المجتمع الصغير الضيق لا يعطي فرصة لميلاد فن الرواية، الا في حدود الاستثناء ، والاستثناء دائما مفتوح امام الفن والعبقرية الفنية .

اصدر اسماعيل فهد اسماعيل حتى الان ثلاث روايات هي « كانت السماء زرقاء » و« المستنقعات الضوئية » واخيرا « الحبل » وهي الرواية التي صدرت في اوائل عام ١٩٧٢ .والروايات الثلاث روايات قصيرة لا تزيد الرواية منها عن مائة وخمسين صفحة من الحجم المتوسط .

دائما اتساءل بعد ان اقرأ كاتبا للمرة الاولى عن الاحساس الذي يتركه هذا الكاتب في النفس .. هل يمتلك هذا الكاتب موهبة حقيقية تستطيع ان تحتل مكانا في وجدان القارىء وعقله ، ام انه كاتب عادي لا يوحي بالامل في الاستمرار والتأثير ؟ وهذا ما تساءلت عنه بيني وبين نفسي بعد ان انتهيت من قراءة الروايات الثلاث . والحقيقة انني شعرت وانا انتقل بين صفحات هذه الروايات انني بلا شك امام كاتب جديد موهوب . وان هذا الكاتب لديه ما يقوله للناس وما يقدمه للادب الروائي ، وان هذا الكاتب الجديد الموهوب يستطيع أن يحتل مكانة بارزة في الادب الروائي والعربي المعاصر لو واصل طريقه بنفس الوعي والاحساس والموهبة ، وخاصة لو استطاع ان يتخلص من اخطاء البداية وعيوب الخطوة الاولى .

ماذا نجد عند هذا الكاتب الجديد الموهوب ؟.. اول ما يلفت النظر في روايات هذا الكاتب هو اسلوبه الذي يعتمد على الايجاز الشديد والتركيز والايحاء ، ان الاسلوب هنا قريب من الشعر ، فيه ما في الشعر من حساسية وبعيد عن التفاصيل الكثيرة ، ومحاولة لخلق موسيقى داخلية للجملة نحس بها ونطرب لها طربا حقيقيا . كما انه في هذا الاسلوب يستبعد السرد التفصيلي للاحداث والمواقف ويركز على مشاعر البطل الرئيسي وموقفه من الحياة واحساسه . وقد استطاع الكاتب ان يشحن اسلوبه بدرجة عالية من العاطفة

والحرارة والايقاع السريع ، ومن الملاحظ ان حروف العطف ، وخاصة حرف « و » تكاد تكون ملغاة في الرواية ، مما يوحي وكأن الرواية كلها هي جملة واحدة متقطعة بنفس الطريقة التي تتقطع بها الانفاس اللاهثة لانسان منفعل . وأحيانا يختصر الكاتب الجملة الواحدة في كلمة ، بحيث تتحول هذه الكلمة الى صورة مليئة بالانفعال . فهو عندما يصف لنا ما يدور في خيال بطل روايته « الحبل » في لحظة من لحظات الانفعال يقول :

« حدوة الحصان . النجار . المسامير . أمه . ابوه . الحبل . الخشبة الناتئة . الصعود . النزول . الدم . وجه امه الملطخ بدماء كفه . الاناء المعدني الذي ما عاد يصلح للطبخ . المطر . السيارة . البرتقالة المثلومة . تذكرة السينما » .

هذا نموذج من اسلوب اسماعيل فهد اسماعيل وهو كما يبدو واضحا اسلوب سريع لاهث خال من حروف العطف ، وهو اسلوب يعتمد في اغلب الاحيان على تيار الصور والذكريات والمشاعر التي تعيش في نفوس ابطاله . وهذا الاسلوب السريع المركز هو الذي اتاح للكاتب ان يتمكن من التركيز الفكري والوجداني في اعماله الروائية فخرجت تعبيرا صادقا عن تجارب الكاتب دون ان تجرنا وراءها في متاهات الثرثرة والتطويل والسفسطة ، ولا شك ان هذا الاسلوب سوف يتيح لروايات اسماعيل فهد انتشارا سريعا وتأثيرا ملموسا بالنسبة للقارىء العربي العصري الذي لم يعد قادرا على استيعاب الاساليب التقليدية العادية في الكتابة الروائية وهي الاساليب التي تعتمد على الشرح والتفصيل والتطويل والسرد المسرف .

هذه الجوانب المشرقة الجميلة في اسلوب اسماعيل فهد اسماعيل يقترن بها خصوبة « الخيال الروائي » عند هذا الكاتب الجديد . والخيال الروائي عنصر اساسي هام لا بد من توفره عند اي كاتب حتى يستطيع هذا الكاتب ان يقدم عملا فنيا له قيمة حقيقية . وعنصر « الخيال الروائي » مفهوم عند كتاب الرواية الكلاسيكية بمدارسها المختلفة ، ولا يمكن في مقياس الرواية الكلاسيكية ان ينتسب كاتب الى فن الرواية دون ان يتوفر له هذا العنصر بصورة عميقة . فهذا الخيال هو الذي يمد الكاتب بالقدرة على خلق الشخصيات والمواقف والاحداث ، بحيث يستطيع الفنان ان يحرك هذا كله حركة واسعة ، كأنه « خالق صغير » يرسم لكل شيء ميلاده ومسيره ومصيره . هذه قضية لا خلاف عليها عند الروائيين الكلاسيكيين، فلا شك ان من ابرز ما يتمتع به تولستوي او دستويفسكي او فلوبر او بلزاك هذا الخيال الروائي العبقري الذي يمدهم بالقدرة على خلق « حكاية » خصبة تتحمل بعد ذلك ما يريدون من افكار وآراء خصبة في الحياة والانسان .

ولكن المشكلة بالنسبة لعنصر « الخيال الروائي » تبدأ مع ظهور الرواية الجديدة في العصر الحديث . فقد تصور الكثيرون وخاصة في ادبنا العربي المعاصر ان الخيال الروائي لا ضرورة له ولا اهمية واصبح الكاتب الذي يتحدث عن الخيال الروائي او يهتم به موصوما بانه كاتب متخلف يبحث عن « الحدوتة » و« الحكاية » و(الاحداث المسلية) مما يعتبر انحرافا عن مفهوم الرواية الجديدة المتطورة. والواقع ان هذه فكرة خاطئة تماما عن « الخيال الروائي » وعن(الرواية الجديدة) معا ، فالخيال الروائي لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة للرواية ، جديدة كانت ام قديمة ، تماما كما لا يمكن الاستغناء عن الموسيقى بالنسبة للشعر قديما كان او جديدا . آن « الخيال الروائي » هو الذي يعطي لفن الرواية سحره ومتعته ، وهو الذي يشد الانسان الى هذا الفن ، ليستطيع الروائي بعد ذلك ان يوحي اليه بافكاره وآرائه المختلفة ، واستبعاد الخيال الروائي وعدم الاهتمام به هو نوع من العجز والنقص ، وهو محاولة لستر عيب رئيسي من العيوب الفنية تحت ستار التجديد .. والتجديد لا علاقة له على الاطلاق بالقصور في الخيال الروائي . وانعدام الخيال الروائي يؤدي الى تحويل الرواية بحيث تصبح مجموعة من المشاعر والافكار المجردة مما يقضي على اي سحر فني في العمل الروائي واي جاذبية فيه .

ونحن نتذكر على سبيل المثال فنانا كبيرا من رواد الرواية الجديدة هو « فرانز كافكا » .. ان كل الاضافات الجديدة التي اضافها «كافكا» الى فن الرواية لم تحجب ابدا خياله الروائي الخصب ، فنحن في رواية « المسخ » مثلا نجد انفسنا امام شخصيات حية ومواقف مثيرة،وهذه الشخصيات والمواقف هي التي تعطي لكافكا سحره الفني حيث يستطيع بعد ذلك ان يقودنا من يدنا الى عوالمه الغامضة الحزينة المفجعة . ان المتعة الروائية التي يوفرها كافكا لقرائه تؤكد لنا انه لا رواية بدون خيال روائي .. لا رواية بدون مقدرة خصبة على خلق الاحداث والمواقف والشخصيات . ولا ان يتوفر في كل روائي ، مهما كانت درجة ارتباطه بالاشكال الجديدة ، لمسة سحرية من لمسات « الف ليلة وليلة » ، والا فقد انقطع ارتباطه بالفن الروائي واصبح كاتبا بعيدا عن سحر هذا الفن وجماله .

اسماعيل فهد اسماعيل يقدم نموذجا للكاتب الشاب المجدد ،الذي لم ينس ابدا ان الاصل في فن الرواية ، هو هذا الخيال الروائي الخصب ، ففي رواياته الثلاث نلتقي بخيال روائي قادر على خلق الاحداث والشخصيات والمواقف ، قادر على ان يخلق هذا الجو السحري الذي ينقلنا من عالمنا الواقعي الى عالمه الروائي ، فننسى اننا نعيش في الواقع الخارجي ، ونحس اننا نعيش مع اشخاص تلك الروايات واحداثها المختلفة . والمنهج الرئيسي الذي يعتمد عليه اسماعيل فهد اسماعيل هو انه يركز كل خياله الروائي في خلق شخصية البطل الرئيسي للرواية ، ومن خلال مشاعر هذا البطل ومشاكل حياته وذكرياته وعلاقاته الانسانية تتفتح لنا احداث الرواية، شيئا فشيئا حتى ننتهي الى اكتشاف العالم الكامل الذي تقدمه الينا هذه الرواية . هناك دائما شخصية رئيسية واحدة تدور حولها الاحداث وتتبع منها وتتحرك حولها . وقد نخرج من الروايات الثلاث التي كتبها اسماعيل فهد دون ان نتذكر اسماء الابطال الثلاثة، ولكننا مع ذلك لا نستطيع ابدا ان ننسى هذه الشخصيات الحادة العنيفة المقتحمة .. قد تكون شخصيات بلا اسماء ولكنها شخصيات تجري في عروقها دماء الحياة الحارة المتجددة .. شخصيات مثيرة تشتبك مع الحياة في معارك عديدة ومواقف مختلفة .

على ان الاسلوب الشعري المركز ، والخيال الروائي الخصب لا يمثلان كل ما يقدمه الينا اسماعيل فهد اسماعيل في رواياته الثلاث، فهو ـ بالاضافة الى ذلك كله ـ كاتب صاحب « رؤية انسانية وفكرية» خاصة ، وبدون هذه « الرؤية » يسقط اي كاتب في هوة عميقة ،فيبدو على هامش الحياة التي يتحدث عنها ويعيش في نطاق الخطوط الخارجية للمجتمع الذي ينتسب اليه . فلا بد للكاتب الروائي ان تكون له رؤياه الخاصة ، وقضيته الانسانية التي يعبر عنها . وكثيرا ما عجز كتاب روائيون .. رغم مواهبهم المتعددة ـ عن ان يحتلوا مكانا بارزا في تاريخ الادب لسبب واحد هو افتقارهم لهذه الرؤية وعجزهم عن تخطيط موقف يؤمنون به ويعبرون عنه . وقد توفر لهذا الكاتب الجديد : اسماعيل فهد اسماعيل موقف خاص ورؤية خاصة به .

ان البطل في الروايات الثلاث متشابه . فهو انسان مختصم مع مجتمعه ، رافض لهذا المجتمع كما ان المجتمع ايضا رافض له . وهذا لبطل الرافض للمجتمع ليس بطلا سلبيا مستكينا بل هو بطل ايجابي يعارض ويحتج ويقاوم . ولانه بطل ايجابي فهو يتعرض للمطاردة والحصار . فبطل الرواية الاولى « كانت السماء زرقاء » مطارد وهارب والقصة كلها تدور حول البطل وهو يجري الى الحدود بحثا عن منفذ يخرج فيه من مأزقه ويتخلص فيه من مطاردة مجتمعه له . وفي الرواية الثانية « المستنقعات الضوئية » نجد البطل سجينا لانه قتل اخوين بسبب قتلهما لاختهما تحت شعار التخلص من العار . اي انه سجين بقاوم المجتمع ويحاول ان يهدم بعض قيمه البالية ويعترض عليها اعتراضا عنيفا وهو يدفع ثمن الاعتراض وثمن المقاومة بالسجن المؤبد . وبطل الرواية الثالثة « الحبل » : لص يسرق الاغنياء ،

ويتعرض للمطاردة ، وهو « لص عقائدي » اذا صح التعبير ، اي انه يسرق لانه يعترض على البناء الذي يقوم عليه المجتمع ، فهو بناء يقوم على « من عنده يعطي ويزاد ومن ليس عنده يؤخذ منه » . . مجتمع يظلم الانسان ، ويحرمه من حق الحياة العادلة الكريمة .. وتهذا فبطل الرواية يسرق لا ليعيش فقط ولكن لينتقم ويجرح البناء الاجتماعي القائم على اساس الظلم وانعدام العدالة . وفي هؤلاء الابطال الثلاثة جميعا نلاحظ ان « المعارضة » عندهم ليست معارضة نظرية هادئة ، ولكنها معارضة تقوم على اساس الفعل والعنف .. انهم معارضون ثائرون وليسوا من انصار المقاومة السلبية .

وهذا الموقف الرئيسي الواحد لابطال الروايات الثلاث يختلط بمواقف وانفعالات اخرى متعددة .. ففي الروايات الثلاث يلعب الجنس دورا واضحا،وهناك ايضا الحب والخيانة والصداقةوالثقافة والمواقف السياسية .. كل هذه العناصر تشترك في تكوين الخلفية العامة للموقف الرئيسي الذي يقفه البطل وهو المعارضة العنيفة والاحتجاج على الاخطاء القائمة في المجتمع ، وهو الموقف الذي يؤدي بالبطل الى وضع المطاردة والحصار والغربة الانسانية . هذه الخلفية المليئة بالعنف والجنس والحب والعلاقاتالاخرى المختلفة تعطي لروايات اسماعيل فهد الثلاث رائحة انسانية حقيقية وتبعد بها كل البعد عن التجريد والطابع العقلي الجاف الخالي من العاطفة والوجدان .

ومن خلال هذه المواقف كلها نحس بالرؤية الانسانية والفكرية التي يعبر عنها اسماعيل فهد في رواياته ، هذه الرؤية هيالايمان بالثورة والتغيير في اتجاه التقدم والعدالة داخل المجتمع العربي المتخلف . وهذه هي الرؤية التي تسيطر على عقل الكاتب وضميره والتي يعبر عنها بفن ووضوح في رواياته الثلاث ، وهذه الرؤية الانسانية والفكرية تضيف قيمة اساسية الى روايات اسماعيل فهد وتفتح امامه مستوى راقيا من التطور الفني والفكري .

هذه هي الملامح الرئيسية للكاتب الروائي اتجديد اسماعيل فهد اسماعيل : اسلوب شعري شديد التركيز سريع الايقاع ، روح عصرية ترفض ما لا يقبله الذوق الحديث من الثرثرة والتطويل والغرق في التفاصيل ، خيال روائي خصب ، ثم رؤية انسانية وفكرية واضحة .

على ان هذا الروائي الجديد الموهوب مع ذلك لا يخلو في اعماله الروائية من سلبيات اساسية يجب التنبه اليها،واخطر هذه السلبيات ولا شك هو « الاختلاط بين السرد الروائي والتيار الشعوري الذي يجري في وجدان البطل او في ذاكرته » .. ان الكاتب يمزج بين الامرين مزجا غير مدروس ، وهو مزج يؤدي الى قدر غير قليل من الغموض والتعقيد في عمله الروائي . ويحاول الكاتب ان يفصل بين السرد الروائي وتيار الشعور بان يكتب السرد الروائي بحروف عادية ما «التداعي الذي يمر بذهن البطل والتداعي الذي يرد عن طريقه» فقد كتبه بحروف سوداء بارزة . وفي الرواية الاخيرة « الحبل » عكس الامر فكتب السرد بحروف سوداء بارزة اما الحوار والتداعي فقد تم طبعهما بحروف عادية . وهذه الطريقة اخذها اسماعيل فهد من غسان كنفاني في روايته المعروفة « ما تبقى لكم » ، ومن الواضح ان اسماعيل فهد متأثر جدا بغسان كنفاني في روحه الروائية بل وفي بعض المواقف والشخصيات ، مثل موقف السفر من البصرة الىالكويت عن طريق التهريب ، وهو الموقف الذي اقام عليه غسان بناءروايته«رجال في الشمس » وانعكس صداه في بعض المواقف الروائية عند اسماعيل فهد ... الا ان الاثر الرئيسي الذي تركه غسان على روايات اسماعيل فهد هو هذا الفصل بين السرد والتداعي عن طريق الحروف البارزة والحروف العادية . ان هذه الطريقة خاطئة الى ابعد الحدود سواء عند غسان او عند اسماعيل فهد على السواء ، لانها تجعل بناء الرواية متوقفا على « عنصر شكلي » خارجي هو عنصر « الطباعة »، وهذا امر غير مقبول . لا بد ان يكون العمل الفني مستقلا في تكوينه الداخليعن هذه العناصر الخارجية استقلالا كاملا ، حتى لا يأتي يوم تتغير فيه معاني السطور بتغير لون الورق ، فيكون اللونالاحمر رمزا لمعنى معين ، واللون الاخضر رمزا لمعنى اخر . تلك كلها قيم تشكيلية وليست قيما ادبية ، واستخدام هذا الاسلوب الخاطىء يربك العمل ارباكا ملموسا ، ولا شك انه ترك تأثيرا سيئا على روايات اسماعيل فهد وخلق فيها جانبا من الارتباك كانت في غنى عنه .ولا بد للعمل الفني ان يكون مبنيا على اساس من التماسك الداخلي بحيث يمكن للقارىء ان يميز – من خلال التسلسل الفني نفسه والتداخل المحسوب بين السرد والتداعي – ما يجري في الحياة من وقائع وما يدور في داخل البطل من مشاعر وانفعالات . والجانب السلبي الثاني في روايات اسماعيل فهد اسماعيل هو انه استسلم للايقاع اللاهث السريع في الاسلوب استسلاما مطلقا . وهذا الايقاع قد ساعد الكاتب على الوصول الى اسلوب حس شاعري منفعل ..هذا امر لا شك فيه ، وهو الامر الذي اعطى لاسلوبه الجمال الذي اشرنا اليه في البداية . ولكن الكاتب كان ينبغي ان يتأنى في بعضالمواقف الروائية المختلفة وان يلتقط انفاسه . وان يتخلص الى حد ما من هذا النفس اللاهث المتقطع وذلك ليعطي نفسه فرصة للتأمل .لقدجاءت روايات الكاتب الثلاث خالية من لحظات التأمل العميق ذلك لان التأمل يحتاج الى وقفات متأنية لم يتحها الكاتب لنفسه ولا لابطاله على الاطلاق . والتأمل بالطبع شيء بعيد تماما عن الثرثرة والتطويل، وهو لا يعني ان يتخلص الكاتب من موهبة التركيز التي يمتلكها وتعتبر ميزة بارزة فيه .. ان التأمل شيء اخر غير التطويل والثرثرة والخروج على التركيز . فالتأمل هو وقفة متأنية في بعض اللحظات مع النفس والحياة . والتأمل منبع رائع من منابع الشعر الجميل الحقيقي .وقد حرم الكاتب نفسه من هذا المنبع واكتفى بالحرص على شاعرية اللفظ والجملة . وهذا خطأ فني كبير وعنصر من عناصر النقص والضعف في اي عمل روائي .

هذان هما العيبان الرئيسيان في روايات اسماعيل فهد اسماعيل: عدم قدرته على خلق نوع من الامتزاج الطبيعي السليم بين السرد والتداعي دون الاستعانة بوسائل غير مقنعة ، وعدم قدرته من ناحية اخرى على ايقاف الايقاع السريع اللاهث في اسلوبه ليتيح لنفسه ولعمله الفني بعض لحظات من التأني والتأمل . والغريب ان هناكحلولا عديدة ورائعة لهاتين المشكلتين بالذات في بعض الاعمال الروائية العربية الجديدة مثل : روايات « الطيبصالح » التي قدمت حلا دقيقا لهاتين المشكلتين وخاصة في رواية « موسم الهجرة الى الشمال »، وهناك ايضا روايات نجيب محفوظ القصيرة التي واجهت هاتين المشكلتين مواجهة عميقة وقدمت لهما حلولا فنية ، ناضجة ..فلماذا لا يستفيد كاتبنا الروائي الجديد من الحلول الفنية التي قدمها الطيب صالح ونجيب محفوظ لكي يضمن لموهبته الخصبة مزيدا من الانطلاق والتألق ؟.. ان الذي يملك مواهب اسماعيل فهد اسماعيل يستطيع ولا شك ان يجتاز هاتين العقبتين ليصبح بعد ذلك احد الراسخين من كتاب الرواية في الوطن العربي ، وهو في طريقه الى ذلك ،واعتقاديانه سوف يصل الى هذه الغاية لو انتبه الى جوانب القوة وجوانب الضعف في موهبته واستطاع ان يوقف عناصر الضعف ويقضي عليها .. بقيت ملاحظة اخيرة ويسيرة هي ان هذا الكاتب الموهوب صاحب الاسلوب الجميل الرشيق كثيرا ما يقع في اخطاء « نحوية » تستحق من مثله ان يتخلص منها ويقضي عليها لانها اخطاء بسيطة ولكنها كثيرة للاسف ..

انها اشبه بالبقع السوداء في الثوب الابيض الناصع .

هل تموت من أجل خطأ في النحو ..؟!

هناك بعض المواقف السريعة البسيطة التي تحدث في حياتنا الفكرية او حياتنا الواقعية ، ويكون لهذه المواقف دلالة عميقةعلى معان كبيرة وقضايا اساسية ، ربما دون ان يقصد احد الىالوصول بها الى هذه النتيجة .. وهذا موقف بسيط صغير من هذا النوع قرأته في أحد الكتب التي صدرت حديثا ، وهذا الموقف على بساطته يبدو لي عظيم الدلالة على معنى هام يتصل بالبحث في « وظيفة الادب

ورسالته » . فقد صدر منذ اسابيع كتاب صغير طريف وممتع للكاتب الشاعر « العوض الوكيل » تحت عنوان « مطالعات وذكريات » ...

وفي فصل من فصول هذا الكتاب يروي لنا الكاتب هذه القصة التي اقتطف منها اجزاء تكفي لتوضيحها والكشف عن احداثها قبل ان اعلق عليها . يقول الاستاذ « العوض الوكيل » في صفحة ٢١٥ من كتابه :

« منذ نحو ربع قرن من الزمان او يزيد قليلا كنت اعمل في وزارة الاوقاف المصرية مديرا لمكتب وزيرها الاديب العالم الاستاذ ابراهيم دسوقي اباظة رحمه الله ، وجاء شهر رمضان المبارك ورصدت الوزارة مبلغا من اعتمادات الخيرات يوزع على المحتاجين والفقراء لهذه المناسبة الاسلامية المجيدة وكانت الطلبات تقدم الى الوزير احيانا والى وكيل الوزارة احيانا أخرى وقطعت طريق الوزير الى مكتبه بالوزارة ذات يوم سيدة من ذوات الحاجة وقدمت طلبها الى الوزير يدا بيد ، ووقع الوزير على الطلبات التي قدمت اليه وبينها طلب هذه السيدة وكان التوقيع على ورقة هذه السيدة « تمنح جنيهان من الخيرات » ثم جاءت الطلبات كلها الى مكتبي لتاخذ سبيلها الى التنفيذ وفق ما امر الوزير به ، فوجهت جميع الطلبات وجهاتها لكنني احتجزت في مكتبي طلب هذه السيدة ، لما لاحظته من الخطأ النحوي في توقيع الوزير ، واخذت اتحين الفرصة لاعادة عرض الطلب على الوزير لاصلاح ما وقع من الخطأ في توقيعه فما كان ينبغي لي ان ادع ورقة كهذه تمر وعليها مثل هذا الخطأ من رئيس جامعة ادباء العروبة التي كانت تضم صفوة الشعراء والادباء في البلد ، وللوزير ولا شك خصوم سياسيون ، سيجعلون من مادة هذا الخطأ موضوعا من موضوعات حملاتهم عليه في داخل البرلمان وفي خارجه اذ انهم سيصورونه في صورة الذي يتعرض لما لا يحسن ، وسيضعونه الى جانب ذلك الوزير الذي اراد ان يحيل احدى الاوراق يوما الى « القلم القضائي » فكتب عليها « تحال هذه الورقة الى القلم القضاقي » لانه ظن ن الهمزة مبدلة من قاف على نحو ما يفعل اهل الحضر والمدن في مصر فوقع في خطأ شنيع ظل خصومه السياسيون يتابعونه به زمنا طويلا .. خشيت ان تمر ورقة الجنيهين وفيها هذا الخطأ لانني ارتأيت ان الفعل الذي يتعدى لمفعولين وهو يمنح اذا بني للمجهول كان المفعول به الاول نائبا للفاعل وظل المفعول به الثاني على حاله » .

ويشرح الاستاذ العوض الوكيل بعد ذلك وجهة نظره النحوية بالتفصيل ، وخلاصة وجهة النظر هذه ان توقيع الوزير ينبغي ان يكون « نمنح جنيهين من الخيرات » وليس كما وقع الوزير « تمنح جنيهان من الخيرات » . ويواصل الكاتب بعد ذلك رواية قصته فيقول:

« ... وقد شغلت الوزير شواغل الوزارة والسياسة والحزب الذي كان ينتمي اليه فلم استطع لقاءه طيلة اربعة ايام ، وفي اليوم الخامس قطعت السيدة المسكينة طريقه مولولة صائحة ان الناس جميعا قد اصابهم خير الوزير وبر الوزارة وانها هي وحدها قد ذيدت عن الخير والبر بسبب لا تدريه ، وتذكر الوزير انه امر بمنحها جنيهين وذكر لها ذلك فاكدت له انها لم تتسلم شيئا . ودخل الوزير مكتبه واستدعاني على الفور وسألني عن جنيهي هذه السيدة المسكينة فقلت انني قد احتجزت الطلب وعليه التوقيع عندي حتى يتم تصحيح الخطأ الذي وقع في توقيع الوزير ، وشرحت للوزير الخطأ كما رأيته ، لكن الوزير احب ان يتثبت وان يعرف وجه الصواب بين رأيي وتوقيعه فاعطى السيدة الجنيهين من ماله الخاص ..

ثم يواصل الكاتب رواية قصته فيقول ان الوزير عقد على الفور اجتماعا ضم عددا كبيرا من ادباء مصر في ذلك الحين لدراسة هذا « الخطأ النحوي » ومعرفة الحقيقة في هذا المجال . وحضر هذا الاجتماع عبدالستار الباسل عضو مجلس الشيوخ واحد زعماء القبائل في مصر واحمد حسن الزيات وكامل كيلاني ومحمود عمار وعلي شوقي وابراهيم ناجي وحسن السندوبي ، وانتهت هذه المحكمة النحوية بان رأي الوزير له ما يؤيده من الشواهد النحوية ، وان الرأي الثاني له ما يؤيده ايضا وان كان الثاني هو الارجح .

هذه هي القصة التي يرويها لنا الاستاذ العوض الوكيل. وهذه القصة في وجه من وجوهها تبدو طريفة ومسلية وفيها احترام للغة العربية ولكنها في نظري تاخذ معنى اخر اوسع واعمق . فهذه القصة تكشف عن نظرة خاصة الى الادب والثقافة والفن ، وهي نظرة امتدت في تراثنا الثقافي على مدى مراحل طويلة . هذه النظرة هي التي تعتبر ان الادب والفن والثقافة كلها امور وظواهر تعلو وترتفع فوق حياة الانسان وفوق مشاكله ومشاعره وصراعه من اجل ان يعيش ويحقق وجوده . وقد ادت هذه النظرة الى عزلة عنيفة بين الثقافة والحياة في كثير من المراحل التاريخية للمجتمع العربي ، وادت الى ما يمكن ان نسميه بظهور مدرسة « البرج العاجي » في الثقافة العربية ، حيث يبدو المثقف ، فنانا كان او كاتبا او مفكرا، كائنا اسمى من الانسان وارقى منه ... كائنا متعاليا لا يلوث يديه بمشاكل الحياة ولا بهموم الانسان . وهناك كلمة مشهورة لاحد النحاة العرب ، وهي تلك الكلمة المشهورة التي يقول فيها «سأموت وفي نفسي شيء من حتى » ... ورغم ما في هذه الكلمة من طرافة ودلالة على اخلاص هذا العالم العربي النحوي القديم لتخصصه العلمي في ميدان النحو ... رغم هذا كله فان هذه العبارة تكشف عن بعد هذا العالم النحوي عن كل ما كان يشغل الانسان في مجتمعه القديم . لو انه قال « سأموت وفي نفسي شيء من الامراض التي تصيب الانسان او من الظلم الذي يصيب المواطن ومن الالام التي تصيب الفرد في المجتمع الذي كان يعيش فيه ذلك العالم النحوي لكان ذلك ابقى له واكثر دلالة على عمق نظرته وصدق وجدانه وقلبه . وهذه القصة التي يرويها لنا الاستاذ العوض الوكيل تكشف لنا نفس الموقف ونفس النظرة .. فهناك خطأ نحوي « محتمل » في « توقيع » الوزير ومن اجل هذا الخطأ تتعرض سيدة فقيرة لازمة مالية ساحقة لمدة خمسة ايام . ويمكننا ان نتصور ان هذه السيدة كانت بحاجة الى «الجنيهين» من اجل طفل من اطفالها المرضى ، ومن الممكن ان نتصور ان هذا الطفل قد تعرض للموت لسبب عدم حصول امه على الجنيهين في الوقت المناسب ، وساعتها يكون هذا الطفل قد « مات بسبب خطأ نحوي في توقيع الوزير » . وهنا يبدو ان الكاتب كان يرضى باي شيء يحدث لهذه السيدة او لاسرتها ولا يرضى بان يقول انسان ان الوزير قد اخطأ في النحو . النحو فوق الانسان . وسمعة الوزير النحوية فوق كرامة اي مواطن جائع او مريض او محتاج . والغريب ان يجتمع هذا العدد الكبير من الادباء المعروفين في مصر في ذلك الحين دون ان يسجل احدهم اي ملاحظة ضد تأجيل صرف الجنيهين للسيدة المحتاجة لمدة خمسة ايام .

انها نظرة تجعل من الثقافة شيئا اعلى من الانسان وارفع منه. وهي نظرة تقابلها نظرة اخرى مختلفة تنادي بان الثقافة اصلا هي في خدمة الانسان وليس الانسان في خدمة الثقافة . وان حصول المرأة المحتاجة على الجنيهين هو موقف اكثر جمالا واصالة وصوابا من تصحيح اي خطأ نحوي مهما كان هذا الخطأ ... وان « النحو » على « العين والرأس » ... ولكن الانسان هو العين والرأس وهو اثمن ما في الحياة ... او هكذا ينبغي ان يكون .

القاهرة — رجاء النقاش

مجلة « الآداب »

وجميع كتب « دار الآداب »

تطلب في البحرين من

المكتبة الوطنية وفروعها